بسم الله الرحمن الرحيم

مالك بن نبي

عصره وحياته ونظريته في الحضارة

مالك بن نبي: عصره وحياته ونظريته في الحضارة/
فوزية بريون .- دمشق: دار الفكر ٢٠١٠ .-
٢٥٦ص ؛ ٢٥سم.
ISBN: 978-9933-10-166-4
١-٩٢٣.٦ : بن نبي، مالك ٢-٣٠٣,٤ ب ر ي م
٣- العنوان ٤- بريون
مكتبة الأسد

الدكتورة فوزية بريون

مالك بن نبي

عصره وحياته ونظريته في الحضارة

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

دار الفكر - دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

مالك بن نبي

عصره وحياته ونظريته في الحضارة

د. فوزية بريون

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٥٢,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-166-4
التصنيف الموضوعي: ٣٢٠ (العلوم والدراسات السياسية)
٢٥٦ ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

المحتوى

الإهداء ٩

تصدير ١١

مقدمة ١٧

مقدمة النسخة الإنجليزية ٢١

الفصل الأول : الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي ٣١

التعليم قبل الاستعمار الفرنسي ٣٢

برنامج التعليم الاستعماري ٣٤

موقف المسلمين من التعليم الفرنسي ٤٢

الفصل الثاني : يقظة الجزائر في مطلع القرن العشرين ٥٧

أثر تونس في اليقظة الجزائرية ٦٢

أثر مصر في النهضة الجزائرية ٦٨

أثر محمد عبده و(المنار) ٧٣

ظهور الصحافة الوطنية ٧٧

تطور الحركة السياسية ٨٢

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٩٠

الفصل الثالث : مالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣م) ١٠١

الطفولة ١٠٤

الشباب ١٠٥

الحياة في فرنسا ١١٢

إنتاجه الفكري في فرنسا ١٢٤

مصر: الهجرة والنشاط ١٢٦

العودة إلى الجزائر ١٣٥

الفصل الرابع : التاريخ والاجتماع في فكر بن نبي ١٤١

تأثير ابن خلدون ١٤٦

بن نبي وتوينبي ١٦٦

الفصل الخامس : محاولات النهوض: مراجعة وتقييم ١٧٧

الحركات القبلية ١٧٩

حركة النهضة ١٧٩

أسباب الإخفاق ١٩٦

الفصل السادس : نظرية في الحضارة ١٩٩

ماهية الحضارة ٢٠١

شروط الإقلاع الحضاري ٢٠٦

الإنسان، العنصر الأهم ٢٠٩

المشروع الثقافي ٢٢١

الدستور الخلقي ٢٢٢

الذوق الجمالي ٢٢٥

المنطق العملي ٢٢٧

الصناعة ٢٢٨
التراب ٢٣٠
الوقت ٢٣٢

ملحق : بن نبي والنخبة السورية ٢٣٥

دور دار الفكر في العناية بمؤلفات بن نبي ٢٤١

المصادر والمراجع ٢٤٥

أولاً: المصادر - مؤلفات بن نبي ٢٤٥
ثانياً: المراجع العربية ٢٤٦
ثالثاً: المراجع الأجنبية ٢٤٨
رابعاً: المقابلات والأحاديث والمراسلات ٢٥٢

الإهداء

إلى أستاذي الأول الذي تشربت منه حب القرآن والأدب والعربية..

وتنشقت من أعطافه جمال معاني العبودية..

واستشعار جلال المعية.. وحب المصطفى خير البرية

إلى من تلقيت عنه معاني الجرأة في الحق.. وتوخي العدل والصدق.. والرأفة بجميع الخلق

إلى صديقي ومعلمي ووالدي الشيخ محمد بريون أطال الله عمره..

وإلى زوجي، رفيق دربي، الذي بفضل إيمانه بي وتشجيعه لي ظهر هذا الكتاب..

وإلى أبنائي جعلهم الله قرة عيني في الدنيا والآخرة.

فوزية

تصدير

✍ أ.د. أبو القاسم سعد الله

شرفتني السيدة الدكتورة فوزية بريون بطلبها مني تصدير كتابها عن فيلسوف الحضارة في عصرنا مالك بن نبي. وربما لا تدري أنني عرفت بن نبي مدة قصيرة وقليلة التأثير، وهي مدة إقامته في القاهرة خلال الخمسينيات، حين جاء إلى هذه العاصمة طموحاً إلى أن ينشر فكره خارج مجال فرنسا التي كانت تحتل بلاده وترتكب الفظائع لمنع شعب الجزائر من تنفس هواء الحرية، وربما كانت لبن نبي طموحات أخرى من هجرته إلى مصر، فقد كان منذ الثلاثينيات من القرن العشرين يرغب في زيارة الشرق والحلول بالعاصمة المصرية، ولكن جهوده لم تثمر عندئذ.

عرفت مالك بن نبي إذن بالقاهرة، سواء في أثناء إقامته بالمعادي أو الدقي، وسواء كان يعمل في سلك المؤتمر الإسلامي أو خارجه. وبصفتي مسؤولاً عن الشؤون الثقافية في اتحاد الطلبة الجزائريين دعوته - من بين آخرين - لإلقاء محاضرة في نادي طلبة المغرب العربي، فلبى الدعوة وألقى محاضرة طرح فيها نظريته في الحضارة مستعملاً معادلته الشهيرة (إنسان + تراب + وقت = حضارة).

وقد التف حول بن نبي طلبة ومريدون من المغرب والمشرق العربيين نظمهم في حلقة أصبحت معروفة باسمه. وكانت قيادة الثورة الجزائرية - وربما المصرية - لا تنظر بعين الرضا إلى هذا الرجل المعتد بنفسه وبفكره، والناقد للمجتمع من حوله، والمبشر بعالم آسيوي-إفريقي جديد يقول عنه إنه ممتد من جاكرتا إلى طنجة. وكان بن نبي رجلاً يخشى منه لأنه مؤثر في نخبة من الشباب الملتف حوله بقطع النظر عن أوطانهم وميولهم، ربما بطريقة مشابهة لفعل جمال الدين الأفغاني قبله بنحو قرن من الزمان.

ثم مرت سنوات والتقيت بعدها بن نبي في الجزائر عدة مرات لقاءات عابرة، وعاصرت تأثيره في فئة من طلبة جامعة الجزائر ومحيطها مع أنه لم يكن محاضراً أو أستاذاً فيها، وإنما كان مديراً للتعليم العالي؛ أي في منزلة رئيس الجامعة اليوم. ولكن الطلبة الذين ارتبطوا به في الجامعة بقوا يترددون على حلقته التي كان يعقدها في منزله. كما أوحى إليهم بتنظيم ملتقى سنوي تحت عنوان ملتقى الفكر الإسلامي، وهو الملتقى الذي تبنته بعده وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، وأصبح قطباً فكرياً كل سنة يحج إليه عدد من مفكري العالم الإسلامي ومن المستشرقين ومن طلبة الجامعات.

وعندما كنت أستاذاً زائراً في جامعة ميشجان (آن آربر) خلال الثمانينيات التقيت السيدة فوزية بريون حرم الدكتور محمود تارسين الليبي، وكانت السيدة بريون عندئذ تعد أطروحة عن مالك بن نبي وكانت تلتقط أخباره من مختلف المصادر القريبة والبعيدة، الشخصية والوثائقية. وقد علمت فيما بعد أنها قد نالت الدكتوراه، وخططت لنشر الأطروحة باعتبارها إضافة من باحثة بذلت جهداً كبيراً في جمع مادة تعتبر عندئذ جديدة. وبعد سنوات علمت أنها نشرت أغلب الأطروحة باللغة الإنجليزية

في ماليزيا. وفي الوقت نفسه عزمت على ترجمتها إلى العربية، وهي الترجمة التي نقدمها اليوم للقراء.

من حسن الحظ أن بن نبي لم يكتف بتأليف الكتب وإلقاء المحاضرات التي سرعان ما تصبح كتاباً، بل سهل مهمة الباحثين في آرائه وسيرته ومحيطه بكتابة (مذكرات شاهد للقرن) ونشر بعضها في حياته وترك الباقي لما بعد وفاته، وها هي المذكرات تظهر الآن تباعاً. وهكذا فإن في المذكرات القديمة والجديدة كشفاً لما تخفيه المؤلفات أحياناً أو ترمز إليه رمزاً، فلم يبق أمام المحللين سوى الربط بين ما جاء في المذكرات وما ورد في الكتب، وتحليل ذلك على ضوء الوقائع والمعطيات والغوص في فكر بن نبي خلف السطور والرموز. ومع أن عدداً من البحوث والكتب والرسائل الجامعية والندوات قد كتبت أو التأمت منذ ناقشت الدكتورة بريون أطروحتها، فإن قائمة المصادر لا تكاد تتدارك هذا الكم من المصادر المثقلة بالأفكار الجديدة.

أقامت الدكتورة بريون أطروحتها على ستة أعمدة أو فصول منطقية، بدأتها بالمؤثرات وانتهت بالنظريات. فهناك الجزائر تحت الاستعمار الفرنسي مهدت به للزمان والمكان والبيئة التي ولد وعاش فيها بن نبي، وهناك مرحلة النهضة أو يقظة نخبة من الجزائريين؛ محافظين وليبراليين، ظهروا في مطلع القرن العشرين، ثم هناك مسيرة مالك بن نبي التعليمية والعملية في الجزائر ثم في فرنسا وتكونه الجسماني والعقلي على يد الحضارة الغربية. وابتداء من الفصل الرابع تأخذ المؤلفة في البحث عن آثار العلوم الاجتماعية في فكر بن نبي ولا سيما التاريخ وعلم الاجتماع. أما الفصلان الخامس والسادس فتناولت فيهما مفاهيم النهضة ونظرية الحضارة عند بن نبي. وهي إذ تتعمق في هذين الفصلين تعتمد على

إنتاج بن نبي من جهة وعلى إنتاج أمثاله ممن عالج الموضوع نفسه أو قريباً منه لتقارن وتقيم وتستنتج. وهكذا فإن الكتاب ليس مجرد رصد لأفكار بن نبي ومساهمته وإنما هو، بالإضافة إلى ذلك، محاسبة فكرية في ضوء النظريات الاجتماعية الأخرى سواء التي عاصر أصحابها أو المتقدمين عليه.

فلا تظنن أن عمل المؤلفة سهل يكتفي بالنقل والسرد، بل هو في نظرنا عمل صعب يقتضي البحث والمساءلة؛ لأن بن نبي من الكتاب ذوي الإنتاج الغزير والنظرة الشمولية إلى العالم وإلى الأشياء، كل ذلك مع تقلباته البيئية والثقافية وعلاقاته الإنسانية وصراعه الوهمي أو الحقيقي مع الذين يشعر أنهم يطاردونه في كل مكان حل به، فهو منذ طرح مبادئ محددة مثل **القابلية للاستعمار** أو (الاستعمار في نفوسنا)، وكون الحضارة لا تستورد، ومغامرة عالم الأشياء، ومشروع الأفروآسيوية...وهو يشعر أن حياته مهددة.

وفي اعتقادنا أن الدكتورة بريون لم تتناول بن نبي انطلاقاً من الإعجاب به، ولكن انطلاقاً من حيث هي باحثة معه عن الحقيقة. ولذلك فإنها طالما استنطقته وتعقبت خطواته لتصل إلى استنتاجاتها المستقلة. ويبدو أنها في الترجمة العربية قد عدلت أحكامها وتوسعت في مفاهيمها، وهي خطوة دون شك، مفيدة للقراء. وقد حاولت المؤلفة أن تصفي الترجمة العربية من بعض الهفوات التي جاءت في الأصل الإنجليزي. وأضافت إلى النسخة العربية بعض المراجع الحديثة.

أما أسلوب الترجمة فجميل وسهل، وهو أقرب إلى الأسلوب الأدبي الرشيق منه إلى الأسلوب العلمي الجاف. وربما هذا هو السبب الذي جعل المؤلفة تشعر أن كتب بن نبي المترجمة من الفرنسية إلى العربية تعاني الغموض أحياناً.

لقد كثرت البحوث حول حياة بن نبي وآثاره في السنوات الأخيرة ولاسيما منذ المرحلة التي عرفت بالصحوة الإسلامية، ثم مرحلة العولمة وحوار الحضارات أو صدامها، فلماذا لا يكون كتاب الدكتورة بريون في طليعة هذه البحوث الجادة؟

أ.د. أبو القاسم سعد الله
قسم التاريخ، جامعة الجزائر
٢٠٠٨/١٢/٠٢م

مقدمة

يمثل مالك بن نبي ظاهرة بارزة في خريطة الفكر العربي والإسلامي المعاصر، تستحق الدراسة والاستقصاء. وهذا الكتاب محاولة للاقتراب من جوانبه الشخصية والموضوعية والتنظيرية، ومن تضاريس عصره وبيئته، في محيطها الضيق (الجزائر) والواسع (العربي والإسلامي). وهويعرض لمحطات من حياته ومجاهداته الفكرية ونشاطاته الثقافية واستخراجاته المعرفية، خالصاً بعد دلك إلى تسليط الضوء على بؤرة اهتماماته التنظيرية والفلسفية، ألا وهي نظريته في الحضارة المتضمنة لشروط النهوض وسنن التغيير والتطور.

وأصل هذا الكتاب أطروحة جامعية مكمّلة لمتطلبات درجة الدكتوراه من جامعة متشجن بأمريكا، في مجال دراسات الشرق الأوسط، وبالتحديد فرع تاريخ الأفكار. وقد نوقشت وأجيزت منذ أكثر من عقدين، ثم نشرت في أصلها الإنجليزي في ماليزيا عام **١٩٩٣**م، وصارت مرجعاً لعدد من الدراسات التي تناولت لاحقاً مالك بن نبي في الغرب والعالم الإسلامي. كما قُررت بعض فصولها على طلاب الدراسات الإسلامية والحضارية في جامعتين بأمريكا وبريطانيا.

وقد ظلت فكرة ترجمة الكتاب إلى العربية تلاحقني طويلاً، إيماناً مني بأن القراء العرب، على قلتهم، أحوج من غيرهم إلى الاطلاع على فكر بن

نبي واستيعابه؛ لا من خلال مؤلفاته وحدها، وإنما من خلال دراسات وأبحاث تبسّط أفكاره وتحللها وتربطها بغيرها، وتسلط الضوء على الظروف التي أنتجتها، وتعاين مدى ملاءمتها لظروف الأمة الراهنة. وعندما شرعت في تنفيذ الفكرة وجدتني أتحرر من اللغة الأكاديمية الصارمة لأنطلق في رحاب لغتي الأم، محاولة أن أضفي على الأسلوب العلمي الجاف مسحة من بهاء اللغة وإشراق الأسلوب، غير حائدة، في الوقت نفسه، عن الموضوعية العلمية أو الإطار المنهجي الذي ينتظم فيه البحث؛ وقد قادني ذلك إلى عدد من التعديلات والإضافات والتنقيحات التي فرضها تغير الظروف وتطور الاستيعاب.

ومع اطلاعي على معظم ما كُتب بالعربية عن الرجل وفكره خلال العقود الثلاثة الماضية، إلّا أنني لم أجد فيه ما يحفزني للاقتباس أو الإشارة فيما قمت به من إضافات، إلا في القليل النادر، وخاصة فيما يتعلق بما نشر من معلومات عن الظروف التي عاشها قبل وفاته داخل الجزائر؛ ذلك أن معظم ما كُتب لم يخرج عن كونه تعبيراً عن الإعجاب والانبهار، أو التلخيص للمحاور التي ضمتها كتبه ومحاضراته، مما لا يضيف للكتاب شيئاً يذكر. فالدراسات التي تناولت فكر بن نبي بذهن ناقد وأسلوب تحليلي يكشف عن أبعاد جديدة فيها،هي في الحقيقة قليلة جداً، على كثرة الندوات والمؤتمرات التي عقدت لذلك الهدف.

وجدير بالدارسين والباحثين في مختلف حقول المعرفة أن يكتسبوا ويمارسوا التفكير النقدي، الذي لا نتعلمه للأسف في قاعات الدرس، ويتمكنوا من منهجية التحليل والتركيب، والاستنتاج والاستنباط، وهي الأدوات نفسها التي استخدمها مالك بن نبي في مراجعاته لواقع الأمة، ومشروع النهضة، وحركات الإصلاح، ومدارس التفكير الغربي، ومناهج

المستشرقين. فهو لم يكن متلقياً سلبياً للأفكار والمفاهيم والفلسفات التي حفل بها عصره، وإنما أخضعها جميعاً للفحص والمقايسة بحيث استطاع أن يربط بين مسار الفكر الإسلامي المتغذي على خصوصية نسقه التاريخي، وبين مسار الفكر الغربي الذي ما انفكت تتوالد فيه، من خلال مساجلات العلم والفلسفة والاجتماع، نظريات ومذاهب ونزعات، لم يتردد في الإشارة إلى نقائصها، أو التدليل على تنكبها سبيل الصواب، وتفلتها من القيم الإنسانية السامية. وهو المنهج الذي استخدمه بن نبي وقصد تقديمه نموذجاً يحتذى به.

وليس هذا الكتاب سوى محاولة لإخراجِ أفكار بن نبي من الحلقة الصغيرة الضيقة، أي حلقة النخب العربية والإسلامية، وتقديمِها إلى حلقات أوسع من المثقفين وشباب الجامعات، وخاصة المجتهدين منهم في تلمس طريق إطار معرفي أوسع من مناهج الدراسة الرسمية. كما يقصد لفت الانتباه إلى آرائه العالمية والإنسانية، وتمكنه من الاستمساك بثوابث أمته مع الانفتاح على العالم، وتوظيفه لمفاهيم تنتمي إلى حقول معرفية متنوعة ثم تطويعها داخل نسقه الفكري الخاص.

وحيث إن هذا البحث لا يمكنه بأي حال الإحاطة بمختلف جوانب فكر بن نبي وأبعادها، فإنه يؤكد ضرورةَ تأسيس شبكة علاقات ثقافية واجتماعية بين الباحثين والمهتمين بالفكر الحضاري ونهضة الأمة، ليأخذ فريق منهم، أو أكثر، على عاتقه إنجاز مشروع علمي مخطط يبرز فكر بن نبي كاملاً في جوانبه الثقافية والأنثربولوجية والسياسية والاقتصادية، ليكون ذلك كله جزءاً من تاريخ الأفكار، مسهماً في خلق التراكم الذي يمكن النسج على منواله والبناء عليه. وذلك من أجل تحويل الأفكار إلى واقع، ثم عرض ذلك الواقع على الفكر لتجاوزه بالوصول إلى رؤى جديدة وأفكار جديدة.

ونحن لا ننكر أن واقعنا الثقافي مازال عاجزاً عن تأسيس شبكة العلاقات هذه، والتي أشار ودعا إليها بن نبي منذ خمسينيات القرن الماضي؛ فمازال العمل الجماعي أوعمل الفريق ظاهرة نادرة في عالمنا العربي، فلا تطبق حتى في أعرق جامعاتنا، وإذا طبقت فإنها تحفل بكثير من العيوب والنقائص. ولهذا فقد ظلت الجهود الفكرية في عالمنا عبارة عن اجتهادات فردية مبعثرة، وهو ما يفرض الدعوة إلى إنشاء مؤسسات ثقافية تتبنى أفكار النهضة ومشاريعها وتؤرخ لها، وتساعد على أن تكون إسهامات الأفراد الفكرية في مختلف منعطفات تاريخ أمتنا منتظمة في سياقها التاريخي والاجتماعي، ومتحاورة بعضها مع بعض ومع واقعها وعصرها. وحريّ بمثقفي أمتنا ومفكريها ألّا يعتمدوا في إنجاز هذا المشروع الضخم والضروري على الدوائر الرسمية، بل يجب في عصر سرعة الاتصال وانتقال المعرفة، الاستفادة من الوسائل الحديثة في تأسيس هذه الشبكة وجمع التمويل اللازم من أثرياء الأمة ومن مؤسسات الوقف الإسلامي ومن إسهامات العلماء والمفكرين مهما كانت قليلة.

ولا يعني هذا سوى تطبيق مبدأ الفاعلية الذي دعا إليه بن نبي.

أدعو الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه، وما التوفيق إلا به ومنه.

د. فوزية بريون

مقدمة النسخة الإنجليزية

كانت ولا زالت فكرة الإصلاح والتجديد فكرة محورية في عالم المسلمين، أكثر منها في أي عالم آخر، ولعلها أعظم ضرورة في هذه المرحلة منها في أي مرحلة أخرى. وقد طرحت هذه الفكرة من زوايا مختلفة ووفقاً لوجهات نظر متباينة من قبل المفكرين على مدى مراحل ممتدة من تاريخنا الثقافي والحضاري؛ إذ ظلت هذه الأمة تواجه مشكلات حقيقية في مجالات الاجتماع والاقتصاد والثقافة والسياسة، ولا يخفى أن أخطرها تلك التي تمس الأخلاق والقيم. وقد تعددت - في البلاد العربية خاصة - التصورات والرؤى والمقترحات لحل تلك المشكلات، فعرف لذلك الفكر الاجتماعي والسياسي جدلاً غير محسوم حول العروبة والإسلام، والوطنية والقومية، والشورى والديمقراطية، والقديم المتوارث والجديد الوافد، وكذلك النظم التي تتخذ الإسلام مرجعية لها.

وقد اتفق الدارسون منذ الأفغاني على تصنيف الاتجاهات المعنية ببحث أهداف التغيير والإصلاح ووسائلهما إلى ثلاث مدارس هي: التقليدية المحافظة، والوسطية المنفتحة، والتحديثية المتساهلة. وقد تميزت المدرسة الأولى بالمحافظة على القالب التقليدي، والانكفاء على الذات، والتقيّد بقالب المجتمع الإسلامي الأول مع رفض الغرب جملة

وتفصيلاً. كما تميّزت المدرسة الثانية بالتمسك بخصائص هويتها الحضارية، والاعتزاز بدينها، مع الانفتاح الفطن على الحضارة الغربية السائدة من أجل الاستفادة منها بما يحرك العناصر الحية في كيان الأمة. أما المدرسة الحديثة فقد عرفت بقبولها الكامل لأفكار الغرب ونظمه ونظرياته، متحملة كل النتائج؛ خيرها وشرها.

وتتناول هذه الدراسة أحد مفكري المدرسة الثانية، وهو المفكر الجزائري مالك بن نبي (١٩٠٥ - ١٩٧٣م)، فتعرض لظروف مجتمعه وعصره ومفاصل هامة من حياته، وتناقش مجمل أفكاره وخاصة نظريته في الحضارة، مقارنة بعض آرائه بآراء من سبقوه، وخاصة ابن خلدون وتوينبي. وقد تميز بن نبي، من بين المفكرين المسلمين، بأن اتخذ من فكرة الحضارة بؤرة تجمّع أفكاره الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، بحيث أصبحت نسقاً فكرياً وهدفاً عملياً يتبلور في خطوطه العريضة مشروع فكري شخّص خلاله بمنهجية علمية أدواء الأمة دون أن يكتفي بالوقوف عند أعراضها السطحية كما فعل مفكرون غيره. وقد ظلت **الحضارة** الفكرة الجوهرية التي دارت حولها جميع مؤلفاته منذ **شروط النهضة**، الذي وضع فيه الخطوط العامة لمشروعه الفكري، ومروراً بمؤلفاته التي اتصل بعضها ببعض حتى وفاته عام **١٩٧٣**م.

لقد تتلمذ بن نبي - تحصيلاً وثقافة - منذ العشرينيات من عمره على الغرب فكراً، وفي فرنسا مكاناً. وهناك بذل جهداً ذهنياً لفهم مقومات الحضارة الغربية، واستيعاب خصائصها الثقافية وجذورها المعرفية. فقد أثارت إعجابه ولفتت انتباهه تجلياتها الإيجابية في الزمان والمكان، ولكنها لم تقلل من اعتزازه بالانتماء إلى ثقافته وتاريخه وتراثه، وهو ما بذل في سبيل الإلمام به والنفاذ إلى أبعاده جهداً لازمه طوال حياته. وقد عانى في فرنسا - كما عانى في وطنه الجزائر - من النظرة التنميطية له بوصفه

(أهلي)، وهي نظرة عنصرية مجحفة رمت به في خضم التناقضات المتوالدة من إفريقيا - أوروبا، والإسلام - المسيحية، والتي كان يغذيها الاستعمار آنذاك. ومع أن بن نبي ربما يكون قد عرف ما أسماه أحد الدارسين بـ «الانفصام الثقافي - Cultural Schizophrenia»[١] إلّا أنه ظلّ معتزاً بهويته التي لم يتنكر لها ولم يتنازل عنها مع كل الملابسات والتحديات. كما ظل مؤكّداً لاختلافه العرقي والثقافي والديني، وهو ما جعل الصراع الفلسفي بين القضية ونقيضها المتمثل في الإسلام والمسيحية آنذاك، محسوماً بالنسبة إليه. فلقد رفض بن نبي الفرضية الغربية بأن الإسلام، بوصفه ديناً، يواجه تحدياً تاريخياً، وفنّدها مؤكداً أن انحطاط المسلمين لا يمكن أن ينسب إلى الإسلام، وإنما إلى أتباعه وإلى تطبيقاتهم[٢]، مدللاً على ذلك بشواهد التاريخ العلمي والحضاري الذي ازدهر نتيجة تشجيع الإسلام للعلم والعقل والتفكر والعدل، وهو التراث الذي قدّرته فيما بعد ثقافات ناشئة، فاقتبست منه وتغذت عليه وطورت أسسه، وانطلقت منه نحو دورة حضارية جديدة[٣].

لم ينكر بن نبي مع ذلك الحقيقة التي تقضي بأن المسلمين يواجهون تحديات داخلية وخارجية كبيرة. فبنظرة مقارنة بسيطة بين وضع الأمة الإسلامية والغرب، توصّل إلى أن جوهر المشكلة إنما هو الحضارة. وقد عزز هذا الفهم وضع الجزائر التي بقيت تحت سيطرة فرنسا لأكثر من قرن من الزمان. ومع أن الجزائر شهدت يقظة في بداية القرن العشرين، فقد نبه بن نبي إلى أن الاستقلال السياسي لن يكون حلّاً ناجعاً ما لم تتم

---

(١) علي مزروعي: **القيم السياسية عند الطبقة المثقفة في إفريقية** (بالإنجليزية)، جامعة كليفورنية، بركلي، ١٩٨١م، ٣٢.

(٢) بن نبي: **فكرة الإفريقية الآسيوية**، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١م، ٢٢٤.

(٣) بن نبي: **إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي**، القاهرة، ١٩٧١م، ٣٢٤.

تصفية ما أسماه **القابلية للاستعمار** من النفوس. وقد دفعه ذلك إلى بحث وضع بلده والعالم الإسلامي، فاستخدم في ذلك النظرة الموضوعية والمنهجية العلمية، متبنياً أدوات علم الاجتماع والتاريخ في تقصي الواقع وتحليله تحليلاً نقدياً يربط الحاضر بالماضي ومن ثمّ بالمستقبل، محاولاً الوصول إلى إجابات عن العديد من الأسئلة التي تدور حول قضايا متشابكة.

وسعياً نحو ذلك الهدف، اتجه بن نبي للقراءة المعمقة في تراث عدد من الفلاسفة والمفكرين الذين اهتموا ببحث ظاهرة الحضارة، فتأثر بأفكار ابن خلدون وخاصة نظرية **الأجيال الثلاثة** التي تشرح مراحل بزوغ الحضارة وأفولها. كما استفاد في هذا الإطار من حقائق العلوم الاجتماعية الحديثة ومناهجها. وهو ما أوصله إلى معادلته الشهيرة:

إنسان + وقت + تراب = حضارة

وقد وضع هذه الفرضية بعد دراسة وافية لحركة النهضة، التي اعتبرها استجابة من قبل الأمة لتحديات الاستعمار الغربي وسياساته في فرض ثقافته على مستعمريه. وقد استنتج بن نبي من هذه الدراسة أن قادة النهضة لم ينجحوا في الإعداد لها إعداداً منهجياً، وأن رواد حركة النهضة وتلاميذها - الإصلاحيين منهم والتحديثيين - لم يكونوا محددين في رسم أهدافهم ولا منظمين في تحديد وسائلهم وإعداد خططهم. فلقد ظن الإصلاحيون بأن الحركة لن يكتب لها النجاح إلّا عن طريق إحياء الإسلام على المستوى النظري الأكاديمي وفي الشكل المنطقي الصوري، فلجؤوا إلى إحياء علم الكلام. وفي المقابل رأى التحديثيون أن تحقيق النهضة يفرض تبني الأفكار الغربية وما يتولد عنها من نظم اجتماعية ومعرفية ومن منتجات، من أجل تخطي هوة التخلف.

وفي هذا الإطار، رأى بن نبي أن كلاً من الإصلاحيين والتحديثيين قد تجاهلوا حقيقتين أساسيتين كان لهما أكبر الأثر في النتائج التي وصلت إليها النهضة؛ الأولى أن المسلمين لم يتخلّوا عن عقيدتهم وإيمانهم، وإنما أخفقوا في ممارسة الوظيفة الاجتماعية للدين في واقعهم[١]. ولذلك فإن إصلاح العقيدة لم يؤثر في الحركة التاريخية للمجتمع. والحقيقة الثانية هي أن الحضارة لا يمكن أن تنشأ باستيراد أفكار حضارة أخرى ونظمها ومنتجاتها، فانحطاط المجتمع غير ناتج عن نقص في الوسائل المادية، وإنما عن المواقف النفسية والمفاهيم السلبية وعدم القدرة على الابتكار، وهو ما يستدعي تنقية للثقافة والأفكار والسلوك، فثروة المجتمع - في رأي بن نبي- لا تقاس بمنتجاته ووسائله، بل بأفكاره الأصلية الدافعة[٢].

وقد شرح في سياقات مختلفة الديناميكية المولّدة للحركة الاجتماعية، التي هي ظاهرة تاريخية ملازمة للحياة البشرية. فرأى أنها تصدر من تفاعل ثلاثة عوالم رئيسية هي **عالم الأشخاص** و**عالم الأفكار** و**عالم الأشياء**. ولكي تؤدي هذه العوالم دورها كاملاً في الحركة الاجتماعية فقد أضاف بن نبي إليها عاملاً آخر أسماه **شبكة العلاقات**، والتي تعمل منظماً للعوالم الثلاثة ومفعّلاً لها، وذلك في المجالات الاجتماعية والثقافية بحيث ينشأ عنها مؤسسات وهيئات تنسق بين مثقفي المجتمع الواحد ومجتمعات الأمة المعاصرة، بهدف الربط والتنسيق بين جهودهم ونشاطاتهم. وتعتمد قوة الأفكار وتأثيرها في الواقع، في رأي مفكرنا، على هذه الشبكة[٣].

---

(١) بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، ٦٥.

(٢) بن نبي: **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية**، دار الفكر، دمشق، ٣٤.

(٣) السابق: ٣٥.

أكّد بن نبي أن فاعلية الأفراد على المستوى الاجتماعي والثقافي هي السبيل المؤدي إلى التغيير والنهضة. وبما أن الإنسان هو العنصر الأساسي في العملية الحضارية، فقد رأى ضرورة البحث في **الثقافة** التي تشكل أنساقها ومفاهيمها، وقوالبها النفسية والذهنية المتوارثة والمكتسبة واقعَ الفرد، وتحدد وضعه بالنسبة إلى مجتمعه ووضع مجتمعه بالنسبة إلى العالم؛ فالإنسان موجه في حياته بثقافته ونظامه القيمي ومواقفه في الحياة، وهو مسؤول عن كيفية الاستجابة لتحديات الواقع ومشكلاته. وقد خلص إلى أنه بالإمكان تعديل شرائط حياة مجتمع ما، وشحن أفكاره وثقافته بالعناصر الحية الإيجابية من أجل الدخول في دورة حضارية جديدة.

وفي هذا الإطار قارن بن نبي بين محاولة العالم الإسلامي لتحقيق النهضة ومحاولة اليابان في المضمار نفسه، فعزا نجاح اليابانيين إلى تمكنهم من تحديد أهدافهم تحديداً دقيقاً واختيار أسلم الوسائل العلمية لتحقيقها؛ إذ كانوا في أثناء ذلك تلاميذ أذكياء للحضارة الغربية، في حين لم يخرج المسلمون عن دائرة كونهم مجرد مستهلكين لمنتجات تلك الحضارة؛ ففي الوقت الذي كانوا يشترون فيه البضائع والمنتجات الغربية ليكدسوها، كان اليابانيون منهمكين في دعم نهضتهم الفكرية وبناء حضارتهم المخططة حسب شروطهم الخاصة وبالطريقة التي تلائمهم. ومع أنهم قد استوردوا بعض المنتجات الغربية، إلا أنهم قد فعلوا ذلك وهم محكومون برغبتهم في تحقيق نجاح حقيقي، لا بهواهم ورغباتهم[1]. وبعْد العهد الميجي قرر اليابانيون إجراء تحديثات اقتصادية جوهرية فحرصوا على ألّا يقعوا في شراك النمط الثقافي الغربي، فتبنوا وسائل التقنية الغربية ولكنهم قرروا أن يحافظوا على الثقافة اليابانية وروحها. أما الأتراك الذين وجدوا أنفسهم فيما بعد في وضع مشابه فقد وصلوا إلى نتيجة مخالفة،

(١) بن نبي: **حديث في البناء الجديد**، المكتبة العصرية، بيروت- صيدا، ٩٤.

وذلك حين ظن كمال أتاتورك أن شعبه لن يستطيع الدخول إلى عالم المعاصرة إلا من بوابة التغريب والانسلاخ عن مقومات الذات الحضارية. وهي نظرية أثبتت إخفاقها تماماً. لقد هدف أتاتورك - كما رأى بن نبي - إلى إحداث هزة عميقة في كيان مجتمعه المنهار، ولكن تلك الهزة لم تأت بنتائجها المرجوّة لأنه لم ينقب عن الشروط والعوامل الأكثر تأثيراً في النهضة التركية، وهي التي تكمن في جوهر الثقافة الأصلية والذات الحضارية[١].

لقد انتقد بن نبي نزعة التغريب، لا بسبب ما ينتج عنها من مسخ للهوية التاريخية فقط، وإنما بسبب تورط الغرب أيضاً في استعمار الشعوب وممارسته للاستعلاء العرقي والتحقير الثقافي. ومع أنه لم يكن يشعر بالنقص أمام الحضارة الغربية، كما لم يشعر بالتعالي عليها، فقد اعترف بموضوعية بحاجة المسلمين وشعوب العالم الثالث إلى الاستعانة بالغرب وخاصة في مجال التقنية والعلوم المتقدمة كالطب والهندسة والتعليم، وغيرها من المجالات التي تحتاج إليها تلك الشعوب، ولكنه أكد أن تلك الاستعانة يجب أن تكون مدروسة ومؤقتة[٢].

لقد أفلح بن نبي في استخدام المهارات الفكرية المنهجية التي اكتسبها من ثقافته الغربية، وخاصة تلك التي استخدم فيها أساليب التحليل الاجتماعي واكتشف عن طريقها بعضاً من المفاهيم المغلوطة التي أسهمت في تدهور وضع المسلمين مثل قولهم: إننا مسلمون، وبما أن الإسلام دين كامل، فنحن إذن كاملون. إذ أدى هذا القياس المغلوط إلى عدم مواجهة قضايا خطيرة، وتجنب أي نقد ذاتي يفضي إلى التحسين ويؤدي إلى تغيير النفس وإعادة تأهيلها[٣].

---

(١) بن نبي: **شروط النهضة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩م، ١٢٣.
(٢) السابق: ١٣٠.
(٣) السابق: ٩٣.

لقد أكّد بن نبي أن أي محاولة لبناء الذات الفردية أو الجماعية لا تتم إلا بتنقية الثقافة وفرز الأفكار والمفاهيم وتعديل السلوك. ويخضع كل ذلك لشروط أربعة مادية ومعنوية هي: **المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العلمي، والصناعة أو المهارات التقنية.** وهي عناصر من شأنها إحياء الأفكار الحية في ثقافة المجتمع ووضع عناصر الحضارة الثلاثة **الإنسان والوقت والتراب** في دائرة العمل الواقعي المخطط.

وتتميز رؤى بن نبي للنهضة والحضارة بتفاصيلها المعروضة في كتبه العديدة، بالأصالة والجدة والمنهجية العلمية. وهي تتناول موضوعات واسعة تتنوع بين التأملات القرآنية، والنظرات السياسية، والتحليلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والفلسفية، كما تشمل الإيديولوجية - أو المفهومية كما يسميها - والاستشراق وأدب السيرة الذاتية. مما جعله من أبرز مفكري العالم الإسلامي المعاصرين، ومن أكثرهم نزوعاً نحو التأسيس الفلسفي والتخطيط العملي.

كتب بن نبي معظم مؤلفاته بالفرنسية، التي تملك ناصيتها وبرع فيها دون العربية، ولكنه كان شديد الحرص على ترجمتها إلى العربية فهاجر من أجل ذلك إلى مصر وأقام فيها. وإذا تمعنا في تلك الترجمات وجدنا أنها تعاني من عيوب واضحة تنبي عن عدم القدرة على النفاذ إلى أبعاد أفكاره الجديدة في نوعها، وقلة المهارة في سبكها داخل قوالب اللغة، وهو ما جعل كتبه عسيرة الفهم بالنسبة إلى القارئ العادي. ومع ذلك فإن آراءه وتحليلاته تبدو للقارئ الجاد والباحث الصبور دقيقة المعنى، عميقة التحليل، موضوعية العرض والنتائج. وقد عُرف بن نبي بقدرته على صياغة مصطلحات مبتكرة ذات دلالات شاملة، وذلك مثل: **القابلية للاستعمار، وإنسان ما بعد الموحدين، والإنسان الخارج من الحضارة، ومجتمع ما بعد الحضارة، وعالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، ومُعامل الحضارة، والأفكار الميتة والأفكار القاتلة**، وغيرها كثير.

عرف بن نبي بحساسيته وحدة مزاجه وسهولة إثارته عند المناقشة[١]، إذ كان يسيطر عليه شعور بأنه مراقب من قبل الاستعمار الذي يرصد أفكاره ويعمل على تشويهها ومحاربتها. ورأى غير المقربين منه أنه كان يتحول إلى إنسان عصبي إذا نوقش في محاضراته بطريقة تبدو ناتجة عن عدم الفهم أو الكسل الذهني. ولذلك فقد كانت أفكاره أكثر تأثيراً حين تقرأ منها حين يعرضها بنفسه. ومع ذلك فقد كان بن نبي أباً عطوفاً لعدد من الشباب الذين احتكوا به واقتربوا منه. ولكن لا يمكن تجاهل أن حدة مزاجه وحزمه الفكري ومنهجيته الصارمة قد أدت إلى قلة تلاميذه الحقيقيين وضعف جهودهم في نشر فكره وشرح آرائه، التي ظلت نافذة ومميزة حتى وقتنا هذا. ولقد شهدت العقود الأخيرة ظهور عدة أطروحات أكاديمية ودراسات فكرية حول بن نبي وأفكاره، وانعقاد عدة مؤتمرات عالمية وحلقات دراسية حول إنتاجه ومكانته في الفكرالإسلامي المعاصر.

تجدر الإشارة في هذه المقدمة إلى أن فرضيات بن نبي التي تربط النهضة والتقدم بثقافة المجتمع الأصلية ومفاهيمه الراسخة، وتأكيده أن كل مجهود لا يأخذ في اعتباره منظومة المجتمع الثقافية لن يكتب له النجاح، كانت رؤية ذكية وصائبة. فقد توصلت إلى النتيجة ذاتها منظمة اليونسكو في مؤتمرها الذي عقد في فينيسية (البندقية) عام ١٩٨٠م. فبعد أن كان الاعتقاد بأن النمو الاقتصادي هو المعيار الحقيقي للتقدم، قرر خبراء اليونسكو في ذلك المؤتمر تعديل استراتيجيات المنظمة لتتضمن الثقافة التي اعتبرت عاملاً جوهرياً في أي تقدم[٢]. كما أقرّ (مؤتمر اليونسكو للسياسات الثقافية) الذي عقد بالمكسيك عام ١٩٨٢م في

---

(١) عبد اللطيف عبادة: **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، دار الشهاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ٢٣.

(2) **Intergovernmental Conference On the Institutional Policies,** Venice, 1970, (final report), UNESCO Press, Paris, p5.

توصياته اعتبار «الإنسان أصل التقدم وهدفه»[1]، وهو ما يتطابق مع أفكار بن نبي الذي اعتبر الإنسان العنصر الجوهري في العملية الحضارية. واعتبر أن المعوّل في ذلك على ثقافته، وذلك قبل عقود عديدة من توصل المنظمة الدولية للنتيجة نفسها.

إن فكر بن نبي الحضاري وآراءه الجامعة الشاملة في حياة الفرد والمجتمع المسلم مازالت حية نابضة زاخرة بالدلالات العميقة والتحليلات الدقيقة، حتى لكأنها تتحدث عن الأزمات والتحديات التي نعيشها اليوم. ولعل النخبة المثقفة؛ العربية والمسلمة، في حاجة ماسة إلى العودة إلى فكر بن نبي وفهمه وإلقاء الضوء عليه، وإيجاد السبل والوسائل للاستفادة منه على المستويين النظري والعملي معاً. ولعل هذا الكتاب خطوة صغيرة في هذا السياق.

والله وحده ولي التوفيق

فوزية بريون

(1) **Cultural Development: Some Regional Experiences,** UNESCO Press, France, 1981,p81.